كتاب



تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

١٥٠هـ - ٢٥٥هـ

تحقيق وشرح

عبد السلام محمد هارون

دار الجيل

بيروت

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنا نعوذ بك من فتنة المُعجب كما نعوذ بك من فتنة الأشَر ، ونعوذ بك من شر الحاسد كما نعوذ بك من رَيْب الصاحب ، وقديماً ما تعوّذوا بالله من كيدهما ، وتوجّهوا إلى الله فى السلامة منهما . قال الله جلّ وعزّ : « ومن شَرِّ حاسدٍ إذا حسد » ، وقال حكيم : « اللهم اكفنى شر أصدقائى ، أما أعدائى فقد عرفتهم » .

سألتنى — أيّدك الله — أن أبعث لك فيما أبعث — كتاب أبى عثمان فى « العثمانية » ، وقلتَ : إنه كتابٌ نادر الأصل ، عزيز المنصِب ، وأنك كنت لم تسمع به من قبل ، وأنّ غيرك من الناس كثير لم يعلموا به ولم يقرع لهم سمعا ، إلاّ ما ظهر لهم أخيراً فى مناقضة الإسكافى له ، وذلك فى جمهرة من رسائل بَعَثها أديب كريم فيما يبعث الناس من هذا النتاج العربى الخالد .

وقد كنتُ على أن أسرع فى إجابة طلبتك ، وأن أبدُر إلى تلبية هذه الرغيبة ، فقد زعمتُ لك من قبل أننى نصبت نفسى لهذا الصنيع ، ودعوت الله أن ينسأ فى الأجل عسى أن أبذل لأبى عثمان من الوفاء كفء ما بذله هو للإنسانية من وفاء بها وبرٍّ عظيم .

وكان ما صنعَ الله من عون فى بعث كتابى « الحيوان » و « البيان » على وجهٍ أراه قد أرضى جمهوراً صالحاً من المنصفين ، وأسخط قلة نادرة من الشَّنأة الحاسدين .

وقد حال دون مبادرتى لإسعافك ما يحول بين المرء وأمانيه الجسام ، من حادث الدهر وعوادى أيامه . وقد كنت أخشى أن يستبدّ بك الجزع بعد هذه المماطلة ، ولكنك صبرتَ وصبرت ، فجزيتُك فى نفسى خيرا ، حتى شاء الله أن يتم هذا الكتاب — وهو كتابٌ عَجَب — بعد لأيٍ شديد ، ومصابرة طال بها الأمد .

وعسى أن تغفر لى — حفظك الله — ما زلّ به القلم ، أو أخطأهُ القلب ، وهو ما لم أتعمده إن شاء الله ، فإنك بالغفران حرىٌّ ، وبالصفح جدير .

تقـــديم

العثمانيـة :

هم أنصار عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والمحتجون لفضله ، المناضلون عنه ، الدافعون مطاعن المخالفين فيه من الشيعة والزيدية وأضرابهم . عرفوا قديماً بهذا الاسم ، وهم فرع من « العمرية » أصحاب عمر بن الخطاب ، كما تدل على ذلك إشارة الجاحظ فى قوله : « ثم أوصى إليه عثمان بن عفان ، وهو أصل العمرية والعثمانية » ، وكما قرن بين الطائفتين ابن النديم فى أثناء أخبار الجهمى : « ووقع بينه وبين قوم من العمريين والعثمانيين شر » . وقال الجاحظ فى حكاية قول العثمانية : « ولا نقول فيه إذ كنا عثمانية وعمرية ، قولكم فى عمر وعثمان » .

وكانت العثمانية أشد الفرق الإسلامية السياسية خلافاً على علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، كما كانت الشيعة أشدّ الناس لهم عداوة .

وكان اتجاه الشيعة فى طعنهم على عثمان أن يطعنوا فى أسلافه : أبى بكر وعمر ، وتشتد حملتهم على أبى بكر خاصّة ، لأنه أعلى الثلاثة الخلفاء الراشدين شأنا وأظهرهم مناقب . ولهذا السبب نفسه فيما أرى اتجهت أفكار العثمانية إلى أن تعلى من شأن أبى بكر وتلتمس له من المناقب ما ترى فيه انتصارا على الشيعة وإفحاماً لهم . فيقولون[1] :

« إن أفضل هذه الأمة وأولاها بالإمامة أبو بكر بن أبى قحافة ... وكان أول ما دلهم عند أنفسهم على فضيلته وخاصة منزلته وشدة استحقاقه إسلامه على الوجه الذى لم يسلم عليه أحدٌ فى عاله وفى عصره » .

ويذهبون إلى الموازنة بين فضائله وفضائل على :

---

(١) العثمانية ص ٣ .

فصحبةُ أبى بكرٍ للرسول فى الغار أظهر فضلا من مبيت علىّ فى الفراش[١]. وقد ظفر من النبى بلقب الصدّيق ، وهو ما لم يظفر بمثله على[٢]. وهو كذلك قد انفرد بالرسول فى العريش[٣]، وقدّمه النبى فى الحديبية[٤] وسايَرَه الرسول وحده يوم فتح مكّة[٥]، وأنزل فيه من القرآن ما لم ينزل فى أحد من الصحابة[٦]. وقد نال فضلا عظيما بإمامته الناس فى مرض النبى صلى الله عليه وسلم[٧] وكان هو إماماً لعلى[٨]. وكان المحكِّمَ فى موضع دفن الرسول[٩]. وهو الذى تدارك الأمّة بحزمه بعد وفاة الرسول[١٠].

وأما الشيعة فيجعلون إسلام علىّ فوق إسلام أبى بكر[١١]. وعلىٌّ كان أفقه من أبى بكر[١٢]. وكان علىٌّ يتصدق وهو فى الصلاة[١٣]. وفيه وفى ابنيه أنزلت سورة كاملة من القرآن[١٤]. وله يقول الرسول : « أنت منى كهارون من موسى[١٥] » . وقد كان علىٌّ مواخياً للرسول[١٦]. وقد أسرّ إليه بعلم ما كان وما سيكون[١٧].

ويقولون : نحن نطعن فى صلاة أبى بكر بالناس[١٨]. وخلافةُ أبى بكر كانت بغير إجماع[١٩]. ويقولون بكفر من أنكر إمامة على[٢٠]. ويقولون : كان بلال وعمار ابن ياسر يطعنان على أبى بكر وعمر[٢١]. ويرمون أبا بكر وعثمان بالجبن[٢٢]. والمفاخر التى يدعيها العثمانية لأبى بكر مدحوضة كاذبة[٢٣]. وأمّا مطاعن العثمانية فى على فإنها واهية مردودة[٢٤].

---

(١) العثمانية ٤٢ .
(٢) ص ١٢٣ ، ١٢٨ .
(٣) ص ٣٥ .
(٤) ص ٧٠ .
(٥) ص ٧٢ .
(٦) ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٢ ، ١٩٥ .
(٧) ص ١٣٠ ، ١٦٤ ، ١٦٥ .
(٨) ص ١٢٩ .
(٩) ص ٨٣ .
(١٠) ص ١٨٤ ، ١٩٩ .
(١١) ص ٥ ، ١٨ ، ٢٠ .
(١٢) ص ٨٤ .
(١٣) ص ١١٩ .
(١٤) ص ١١٦ .
(١٥) ص ١٥٣ ، ١٥٨ .
(١٦) ص ١٦١ .
(١٧) ص ٢٤٣ .
(١٨) ص ١٧٠ .
(١٩) ص ١٧٢ .
(٢٠) ص ٢٢٥ .
(٢١) ص ١٨٠ ، ١٨٢ .
(٢٢) ص ٢٤٢ .
(٢٣) ص ٢٣٨ .
(٢٤) ص ٢٣٩ .

وقد جعل الجاحظ نفسه حكماً بين هذه المطاعن والمناقضات ، ولم يستطيع أن يكتم مافى نفسه من التحامل على الشيعة ، كما لم يستطع أن يكذب على التاريخ فيسلب علياً رضوان الله عليه جمهور مناقبه العالية ، بل هو يجهر بتمجيده لعلى كرّم الله وجهَه ، ويحمِّل شيعة علىٍّ تَبِعة هذه المهاترات ، فيقول :

« وليس أنه — أى على — لم يكن فى طبعه النجدة والشهامة ، وفى غريزته الدفع والحماية[1] » .

« ولم نرد بهذا الكلام تنقُّص علىٍّ رحمه الله ، ولا إخراجه من الغناء واحتمال المكروه[2] » .

« والعجب إن كان كما تزعمون ، كيف لم يبصق على أبى موسى فيُجذِمَه ، أو على جيش صِفين فيهزمه ؟ ! بل كان علىٌّ أظهر سِلماً ، وأرجَح حلماً وأشدّ ورعاً ، وأكثر فقهاً وأبين فضلا ، من أن يدعى هذا وشِبهه[3] .

ومدار الكلام فى هذا كله على «الإمامة» ، فالنزاع بين الفريقين يطوِّف مايطوِّف ثم يأوى إلى هذا المعنى الدينىّ السياسىّ .

وفى ذلك يقول الجاحظ[4]: « ولكن كتابى هذا لم يُوضع إلاّ فى الإمامة . ولربما ذَكرت من المقالة والملّة والنِّحلة التى تَعرِض فى الإمامة صدراً ، طلباً للتمام وتعريفاً لوجوه الإمامة وما دخل فيها » .

متى ألف الجاحظ كتاب العثمانية :

نستطيع أن نجعل حدّاً لتأليف هذا الكتاب قبل سنة ٢٤٠ ، وهى السنة التى توفى فيها أبو جعفر الإسكافى[5]. فقد ذكر ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة أن أبا جعفر الإسكافى نقض كتاب العثمانية على أبى عثمان الجاحظ (فى حياته) . وذكر

---

(١) العثمانية ص ٣٠ .
(٢) ص ٤٨ .
(٣) ص ١٥٣ .
(٤) ص ٢٠٦ .
(٥) تاريخ بغداد ٥ : ٤١٦ ومروج الذهب ٣ : ٢٥٤ وابن أبي الحديد ٤ : ١٥٩ .

أيضا أن الجاحظ دخل سوق الورّاقين ببغداد فقال : مَن هذا الغلامُ السَّوادىّ الذى بلغنى أنه تمرّض لنقض كتابى ؟ وأبو جعفرٍ جالسٌ ، فاختفى منه حتى لم يره .

وقد ألف كتابه هذا قبل كتاب « العباسية » ، قال فى العثمانية[1] : « وسنخبر عن مقالة العباسية ووجوه احتجاجهم بعد فراغنا من مقالة العثمانية » .

وألّفه كذلك قبل كتاب المعرفة[2] ، وقبل كتاب الحيوان ، فهو يقول فى مقدمة الحيوان[3] : « وعبتنى بحكاية قول العثمانية والضرارية[4] ، وأنت تسمعنى أقول فى أوّل كتابى : وقالت العثمانية والضِّرارية ، كما سمعتنى أقول : قالت الرافضة والزيدية ، فحكمت علىّ بالنصب لحكايتى قول العثمانية ، فهلاَّ حكمت علىّ بالتشيع لحكايتى قول الرافضة » .

تحقيق اسم الكتاب :

إن نسخة الأصل لم يثبت على ظاهرها عنوان خاص ، ولكنها تحمل فى ظاهرها خاتم مكتبة كوبريلى ورقم ٨١٥ وسماها المفهرسون : « جمل جوابات العثمانية بجمل مسائل الرافضة والزيدية » اقتباساً من عبارة وردت فى أواخر هذه النسخة (ص ٢٨٩ س ٦) .

والحق أن اسم هذا الكتاب هو « كتاب العثمانية » عرفه بذلك ابن أبى الحديد[5] .

---

(١) ص ١٨٧ .

(٢) ص ٢٦١ .

(٣) الحيوان ١ : ١١ .

(٤) هؤلاء أتباع ضرار بن عمرو صاحب مذهب الضرارية من فرق الجبرية . وكان فى أول أمره تلميذاً لواصل بن عطاء المعتزلى ، ثم خالفه فى خلق الأعمال ، وإنكار عذاب القبر . الاعتقادات للرازى ٦٩ والفرق ٢٠١ . ويحكى عن ضرار أنه كان ينكر حرف عبد الله بن مسعود وحرف أبى بن كعب ويقطع بأن الله لم ينزله . الملل والنحل ١ : ١١٥ . قال أحمد بن حنبل : شهدت على ضرار عند سعيد بن عبد الرحمن الجمحى القاضى ، فأمر بضرب عنقه فهرب . وقيل إن يحيى بن خالد البرمكى أخفاه . لسان الميزان ٣ : ٢٠٣ . ومن الواضح أن حكاية قول الضرارية كان فى كتاب آخر غير كتاب العثمانية .

(٥) شرح نهج البلاغة ٣ : ٢٥٣/٤ : ١٥٩ .

وعلى هذه التسمية صنع أبو جعفر الإسكافى كتابه الذى سماه « نقض العثمانية[1] » .

ويقول المسعودى فى مروج الذهب[2] :

« وقد صنّف أيضاً كتابا استقصى فيه الحجاج عند نفسه وأيّده بالبراهين ، وعضَده بالأدلة فيما تصوّره من عقله ، ترجَمَه بكتاب العثمانية ، يحل (؟) فيه عند نفسه فضائل على عليه السلام ومناقبه ، ويحتجّ فيه لغيره ، طلباً لإماتة الحق ، ومضادّةً لأهله . والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

ثم يقول : « ثم لم يرض بهذا الكتاب المترجم بكتاب العثمانية حتى أعقبه بتصنيف كتاب آخر فى إمامة المروانية وأقوال شيعتهم ؛ ورأيته مترجماً بكتاب إمامة أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان فى الانتصار له من على بن أبى طالب رضى عنه وشيعة الرافضة ، يذكر فيه رجال المروانية ، ويؤيد فيه إمامة بنى أمية وغيرهم » .

ويقول بعد ذلك : « ثم صنف كتاباً آخر ترجمه بكتاب مسائل العثمانية ، يذكر فيه ما فاته ذكره ونقضه عند نفسه من فضائل أمير المؤمنين على ومناقبه فيما ذكرنا » .

والراجح أن كلمة « العثمانية » فى النص الأخير محرفة عن « العباسية » ؛ وذلك لأن « مسائل العباسية » هو الكتاب الذى وعد به الجاحظ فى أثناء كتاب العثمانية وفى ختامه .

يقول فى الموضع الأول[3] : « وسنخبر عن مقالة العباسية ووجوه احتجاجهم بعد فراغنا من مقالة العثمانية » .

وفى الموضع الثانى[4] : « ونحن مبتدئون فى كتاب المسائل » يعنى بذلك « مسائل العباسية » .

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣ : ٢٥٣ (التى وردت خطأ مطبعياً بعد ص ٢٥٦) .

(٢) مروج الذهب ٣ : ٢٥٣ .

(٣) ص ١٨٧ . (٤) ص ٢٨٠ .

قدر الكتاب :

لو لم يكن من قدر هذا الكتاب إلا أنك تقرأ من قلم الجاحظ ثمانين صفحة ومائتين لكفى ذلك فضلا له ، فإنّ ما كتبه الجاحظ فى كتابيه « الحيوان » و « البيان والتبين » يعدُّ بالنسبة إلى النصوص والنقول التى حشدها فى ذينك الكتابين شيئاً ليس بالغالب . وأما العثمانية فهى صَوغٌ كريم للجاحظ ، ومتاعٌ لدارس المسائل الدينية ، والقضايا التاريخية والسياسية التى نجمت فى فجر الإسلام وأوائل الدول الإسلامية . وهو كذلك معرض كبير للجدال والحجاج الفكرى فى عصر من أزهى العصور الإسلامية الأُولى .

نقض العثمانية :

ظهر كتاب العثمانية فى زمان كثر فيه الجدال والنزاع حول العصبية الدينية والسياسية ، وكان المعتزلة فى أوج قوتهم ونشاطهم . ويبدو كذلك أن الحرية الفكرية لم تكن تلقى من القيود ما يكفكف من غربها . فالجاحظ نفسه يقول فى العثمانية[1] معبراً عن زوال التقية وانطلاق الفكر بقوله :

« ولو لم أكن على ثقة من ظهور الحق على الباطل لم استحل كتمانه مع زوال التقية ، وصلاح الدهر ، وإنصاف القيم » .

لذلك وجدنا العثمانية تلقى من ينقضها فى حياة الجاحظ . ومن العجب أن الذى ينقض العثمانية وهو شيخ من شيوخ المعتزلة البغداديين ورؤسائهم ، وأهل الزهد والديانة منهم ، ممن يذهب إلى تفضيل على عليه السلام ، وإلى القول بإمامة المفضول كما يقول المسعودى[2] ، وذلك الناقض هو أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافى .

وقد عدّه قاضى القضاة[3] فى الطبقة السابعة من المعتزلة ، مع عباد بن سليمان الصيمرى ،

(١) العثمانية ص ١٥٤ .

(٢) مروج الذهب ٣ : ٢٠٣ — ٢٠٤ .

(٣) هو أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذانى الاستراباذى . كان شيخ المعتزلة فى عصره ، وهم يلقبونه قاضى القضاة ، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره . ومات بالرى سنة ٤١٥ . تاريخ بغداد ١١ : ١١٣ والرسالة المستطرفة ١٢٠ .

وزرقان ، وعيسى بن الهيثم . كما جعل أول هذه الطبقة ثمامة بن أشرس ، ثم أبا عثمان الجاحظ ، ثم أبا موسى عيسى بن صبيح المردار ، ثم أبا عمران يونس ابن عمران ، ثم محمد بن إسماعيل العسكرى ، ثم عبد الكريم بن روح العسكرى ، ثم يوسف بن عبد الله الشحام ، ثم أبا الحسين الصالحى ، ثم صالح قبة ، ثم الجعفران : جعفر بن جرير ، وجعفر بن ميسر ، ثم أبا عمران بن النقاش ، ثم أبا سعيد أحمد ابن سعيد الأسدى ، ثم عباد بن سليمان ، ثم أبا جعفر الإسكافى هذا .

وقال : كان أبو جعفر فاضلا عالما ، وصنف (سبعين كتابا) فى علم الكلام . وهو الذى نقض كتاب العثمانية على أبى عثمان الجاحظ (فى حياته) . ودخل الجاحظ الوراقين ببغداد فقال : من هذا الغلام السوادى الذى بلغنى أنه تعرض لنقض كتابى ؟ ! وأبو جعفر جالس ، فاختفى منه حتى لم يره .

وكان أبو جعفر يقول (بالتفضيل) على قاعدة معتزلة بغداد ويبالغ فى ذلك . وكان علوىّ الرأى محققاً منصفاً قليل العصبية[١] .

ولتوضيح هـذا النص الأخير نُورد ماذكره ابن أبى الحديد فى صدر كلامه فى شرح نهج البلاغة ، إذ يقول[٢] .

« القول فيما يذهب إليه أصحابنا المعتزلة فى الإمامة ، والتفضيل ، والبغاة ، والخوارج :

اتفق شيوخنا كافّة — رحمهم الله — المتقدمون منهم والمتأخرون ، والبصريون والبغداديون ، على أن بيعة أبى بكر الصديق صحيحة شرعية ، وأنها لم تكن عن نص ، وإنما كانت بالاختيار ، الذى ثبت بالإجماع وبغير الإجماع كونُه طريقاً إلى الإمامة .

واختلفوا فى (التفضيل) ، فقـال قدماء البصريين كأبى عثمان عمرو بن عبيد ، وأبى إسحاق إبراهيم بن سيّار النظام ، وأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وأبى مَعن

(١) ابن أبى الحديد ٤ : ١٥٩ .
(٢) ابن أبى الحديد ١ : ٣ .

ثمامة بن أشرس ، وأبي محمد هشام بن عمرو الفُوطي ، وأبي يعقوب يوسف بن عبدالله الشحام ، وجماعةٌ غيرهم ، أن أبا بكر أفضل من على عليه السلام ، وهؤلاء يجعلون ترتيب الأربعة فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة .

وقال البغداديون قاطبةً قدماؤهم ومتأخّروهم كأبي سهل بِشر بن المعتمر ، وأبي موسى عيسى بن صُبيح ، وأبي عبد الله جعفر بن مبشّر ، وأبي جعفر الإسكافى ، وأبي الحسين الخياط ، وأبي القاسم عبد الله بن محمود البلخى وتلامذته ، أن عليًّا عليه السلام أفضل من أبي بكر . وإلى هذا المذهب ذهب من البصريين أبو على محمد بن عبد الوهاب الجبائى أخيراً . وكان من قبل من المتوقّفين ، كان يميل إلى التفضيل ولا يصرّح به ، وإذا صنّف ذهب إلى الوقف فى مصنّفاته . وقال فى كثير من تصانيفه : إن صح خبر الطائر (١) فعليٌّ أفضل .

ثم إنَّ قاضى القضاة رضى الله عنه ذكر فى شرح المقالات لأبي القاسم البلخى أن أبا على (٢) رضى الله عنه ، يوم مات ، استدنى ابنه هاشم إليه ، وكان قد ضعف عن رفع الصوت ، فألقى إليه أشياء ، من جملتها القول بتفضيل على عليه السلام .

وممن ذهب من البصريين إلى تفضيله عليه السلام الشيخ أبو عبد الله الحسين ابن على البصرى رضى الله عنه ، كان متحققاً بتفضيله ، ومبالغاً فى ذلك ، وصنّف فيه كتاباً مفرداً .

وممن ذهب إلى تفضيله عليه السلام من البصريين قاضى القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد رضى الله عنه . ذكر ابن متويه عنه ، فى كتاب الكفاية فى علم الكلام ، أنّه كان من المتوقفين بين على عليه السلام وأبي بكر ، ثم قطع على تفضيل على عليه السلام ، بكامل المنزلة .

ومن البصريّين الذاهبين إلى تفضيله عليه السلام أبو محمد الحسن بن متويه صاحب

---

(١) انظر العثمانية ص ١٤٩ — ١٥٠ .

(٢) يعنى أبا على محمد بن الوهاب الجبائى .

التذكرة ، نصّ فى كتاب الكفاية على تفضيله عليه السلام على أبى بكر ، واحتجّ لذلك وأطال فى الاحتجاج .

فهذان المذهبان كما عرفت . وذهب كثيرٌ من الشيوخ رحمهم الله إلى التوقف فيهما ، وهو قول أبى حُذيفة واصل بن عطاء ، وأبى الهُذيل محمد بن الهذيل العلاّف من المتقدمين . وهما وإن ذهبا إلى الوقف بينه عليه السلام وبين أبى بكر وعمر ، قاطعان على تفضيله على عثمان .

ومن الذاهبين إلى الوقف الشيخ أبو هاشم عبد السلام بن أبى على رحمهما الله ، والشيخ أبو الحسن محمد بن على بن الطيب البصرى رضى الله عنه .

وأما نحن فنذهب إلى ما يذهب إليه شيوخنا البغداديون من تفضيله عليه السلام . وقد ذكرنا فى كتبنا الكلامية ما معنى الأفضل ؟ وهل المراد به الأكثر ثواباً أم الأجمع لمزايا الفضل والخلال الحميدة ؟ وبينّا أنه عليه السلام أفضل ، على التفسيرين معاً . . . » .

فهذه الوثيقة النادرة تبين لنا مدى العلاقة بين التشيّع والاعتزال ، وتعلّل لنا بعض الدوافع التى حدت بالجاحظ أن يصنع كتاب العثمانية .

وكتب « نقض العثمانية » من الكتب التى انقرضت ، ولم يبق منه إلا نصوصٌ متناثرة فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد[1] ، الذى طبع للمرة الأولى فى طهران سنة ١٢٧٠ ثم فى مصر سنة ١٢٩٠ ، ١٣٢٩ .

وقد أفرد الأستاذ حسن السندوبى هذه النصوص فى كتابه « رسائل الجاحظ » المطبوع فى القاهرة سنة ١٣٥٢ وجاء بها على ترتيبها الذى وجدت عليه فى شرح نهج البلاغة ، بعد أن أفردَ نصوص العثمانية التى نقضها أبو جعفر الإسكافى على ترتيبها فى ذلك الشرح .

---

(١) هو عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن أبى الحديد المدائنى المعتزلى ، الفقيه الشاعر . ولد سنة ٥٧٦ وتوفى سنة ٦٥٥ . فوات الوفيات .

وذلك أن ابن أبى الحديد يسوق النص من العثمانية ثم يعقب عليه بمناقضة أبى عثمان نصًّا بنص. ولكن الأستاذ السندوبى أفرد الأولى جميعها، ثم أفرد الأخرى جميعها كذلك.

وقد وجدتُ أن النصوص التى أوردها ابن أبى الحديد من العثمانية تدور حول مواضع لا تتجاوز اثنتين وستين صفحة من صدر العثمانية فحسب[١]، ووجدت أن التعقيب عليها فى أسفل الصفحات بمناقضات أبى جعفر يُخل بالوضع الذى يجب أن يخرج عليه الكتاب، فوضعتُ إشارات بالنجوم فى الأصل وأشرت فى الحواشى إلى أرقام المناقضات التى تقابلها والتى أفردتها وحدها بعد نهاية نص العثمانية.

ولم أشأ أن أعتمد على النسخة المطبوعة المتداولة من شرح ابن أبى الحديد، وهى طبعة سنة ١٣٢٩ فرجعت إلى المخطوطة الكاملة المودعة برقم ٥٧٦ أدب، وقابلت نصَّها بنصّ النسخة المطبوعة، التى أشرت إليها بالرمز «ط».

وقد لحظت أن النصوص التى يوردها ابن أبى الحديد من العثمانية لا تطابق الأصل مطابقةً تامة، بل يتصرّف فيها بالاختصار[٢]، مع أن ابن أبى الحديد

---

(١) عالج ذلك ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة ٣ : ٢٥٣ بما يلى :

« وينبغى أن يذكر فى هذا الموضع ملخص ما ذكره الشيخ أبو عثمان الجاحظ فى كتابه المعروف بكتاب العثمانية فى تفضيل إسلام أبى بكر على إسلام على عليه السلام، لأن هذا الموضع يقتضيه، لقوله عليه السلام حكاية عن قريش لما صدق رسول الله صلى الله عليه وآله : وهل يصدقك فى أمرك إلا مثل هذا ! لأنهم استصغروا سنه فاستحقروا أمر محمد صلى الله عليه وآله، حيث لم يصدقه فى دعواه إلا غلام صغير السن . وشبهة العثمانية التى قررها الجاحظ من هذه الشبهة نشأت، ومن هذه الكلمة تفرعت، لأن خلاصتها أن أبا بكر أسلم وهو ابن أربعين سنة، وعلى أسلم ولم يبلغ الحلم، فكان إسلام أبى بكر أفضل . ثم نذكر ما اعترض به شيخنا أبو جعفر الإسكافى على الجاحظ فى كتابه المعروف بنقض العثمانية . ويتشعب الكلام بينهما حتى يخرج عن البحث فى الإسلامين إلى البحث فى أفضلية الرجلين وخصائصهما فإن ذلك لا يخلو عن فائدة جليلة، ونكتة لطيفة، لا يليق أن يخلو كتابنا هذا عنهما، ولأن كلامهما بالرسائل والخطابة أشبه . وفى الكتابة أقصد وأدخل . وكتابنا هذا موضوع لذكر ذلك وأمثاله » .

(٢) بلغ أن أوجزت صفحتان منه فى نحو ثلاثة أسطر . قابل بين ص ٢٧ — ٣ س ٦ وأصل المناقضة رقم ٦ فى ابن أبى الحديد ٣ : ٢٦٧ .

نفسه ينعى على الذين يصنعون ذلك فى اقتباس النصوص . قال يعيب المرتضى فى ذلك[١] :

« والمرتضى رحمه الله لا يورد كلام قاضى القضاة بنصه ، وإنما يختصره ويورده مبتورا ، ويومئ إلى المعانى إيماء لطيفا ، وغرضه الإيجاز . ولو أورد كلام قاضى القضاة بنصه لكان أليق ، وكان أبعد عن الظنّة ، وأدفع لقول قائل من خصومه : إنه يحرّف كلام قاضى القضاة ويذكره على غير وجهه . ألا ترى أنّ من نصب نفسه لاختصار كلام فقد ضمن على نفسه أنه قد فهم معانى ذلك الكلام حتى يصح منه اختصاره ، ومن الجائز أن يظن أنه قد فهم بعض المواضع ولم يكن قد فهمه على الحقيقة ، فيختصر ما فى نفسه لا ما فى تصنيف ذلك الشخص . وأما من يورد كلام الناس بنصه فقد استراح من هذه التبعة ، وعرض عقلَ غيره وعقل نفسه على الناظرين والسامعين » .

لكنّ الذى يهوّن من هذا الأمر أن ابن أبى الحديد نفسه يذكر فى صراحة أنه إنما يسوق ملخّصا لكلام الجاحظ ، قال[٢] : « وينبغى أن يذكر فى هذا الموضع ملخص ما ذكره الشيخ أبو عثمان الجاحظ فى كتابه المعروف بكتاب العثمانية » .

ولهذا السبب لم أر داعياً لذكر النص الذى نقله ابن أبى الحديد من العثمانية ، وإنما استعنت به فى تحقيق نص الكتاب ، ورمزت له بالرمز « ح » .

ومما هو جدير بالذكر أن تلك المناقضات قد وردت عند ابن أبى الحديد غير مرتبة وغير مسايرة لمجرى الكتاب ، فترتيبها هناك على هذا النسق : المناقضات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٨ ، ١٦ ، ٢٩ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤ : ١٧٥ .

(٢) شرح نهج البلاغة ٣ : ٢٥٣ التى وقعت خطأ بعد ص ٢٥٦ .

لـكنى غيّرت هنا نسقها الذى وردت عليه لتساير نصوص العثمانية على ترتيبها المطّرد .

أصول كتاب العثمانية :

لم يكن هذا الـكتاب معروفاً ، عُرِف معرفةً تاريخية فحسب ، ولم تنشر المطبعة إلا الفصول التى أوردها ابن أبى الحديد ، وما إن علمت بأن معهد المخطوطات للجامعة العربية قد اجتلب صورة منه ، حتى بادرت إلى طلب صورة منها ، تمهيداً لنشره فى « مكتبة الجاحظ » التى بدأت العمل فى تحقيقها سنة ١٣٥٧ .

وأصل هذه النسخة مودع فى مكتبة كوبريلى بتركيا برقم ٨١٥ . وهى نسخة مجهولة التاريخ توشك أن تـكون من مخطوطات القرن السادس الهجرى . ومع جودة خطها هى كثيرة التحريف ، ومع هذا التحريف نجد منهج كتابتها خاضعا لمنهج الأقدمين من وضع علامات لاهمال الحروف مثل (٧) أو تقييدها وضبطها مثل (ح) و (ع) . وكثيراً ما يترك الناسخ إعجام بعض الحروف مثل (رى) و (بدا) ثقة بذهن القارئ أو مطاوعة لأصل نسخته .

وهذه النسخة هى التى عبرت عنها فى الحواشى بكلمة (الأصل) .

أما النسخة الثانية فهى مقتطفات من « العثمانية » وردت فى مجموعة عنوانها « مختارات فصول الجاحظ » من اختيار عبيد الله بن حسان . كتبت هذه النسخة سنة ١٢٩٤ باسم خزانة مسيو كريمر النمساوى .

وأصل هذه المجموعة محفوظ فى مكتبة المتحف البريطانى برقم ١١٢٩ ، وصورتها مودعة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٦٩ . ويبدأ الاختيار فيها من العثمانية فى الورقة ١٦١ .

وهذه الفصول المختارة من العثمانية لم ترد فى المختارات المطبوعة فى مصر بهامش كامل المبرد .

وقد تضمنت هذه الفصول أربعة اختيارات .

الأول يبدأ من أول الثمانية وينتهى إلى س ٤ من ص ١٨ .

والثانى من س ١٦ ص ٣٥ إلى س ٧ من ص ٣٧ .

والثالث من س ١٢ ص ٣٩ إلى س ٣ من ص ٤١ .

والرابع من س ٨ ص ٢٥٠ إلى س ٩ من ص ٢٥٧ .

وقد رمزت لهذه النسخة بالرمز (ب) .

وعلى هاتين النسختين اعتمدت فى تحقيق نص الكتاب مستعينا بشتى المراجع ، ولا سيما التاريخية والأدبية .

وأرجو أن أكون بهذا الجهد قد قاربت الصواب ، ودانيت الحق .

ولله الحمد على ما أنعم ؟

عبد السلام هارون

مصر الجديدة فى ٢٠ رمضان ١٣٧٤

مراجع التحقيق

أسماء جبال تهامة ، لعرام بن الأصبغ ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ١٣٧٣
الإصابة ، فى أسماء الصحابة ، لابن حجر . طبع السعادة ١٣٢٣ .
إمتاع الأسماع ، للمقريزى . تحقيق محمود شاكر . لجنة التأليف ١٣٦٠ .
الإنباه على قبائل الرواة ، لابن عبد البر . السعادة ١٣٥٠ .
أنساب الأشراف للبلاذرى . بيت المقدس ١٩٣٦ م .
البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٦٩
تاريخ الإسلام ، للذهبى . طبع القدسى ١٣٦٧ .
تاريخ الأمم والملوك ، للطبرى . الحسينية ١٣٢٦ .
تاريخ بغداد للخطيب البغدادى . القاهرة ١٣٤٩ .
تحقيق النصوص ونشرها ، لعبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٧٤ .
تفسير أبى حيان . السعادة ١٣٢٨ .
تهذيب التهذيب ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٢٥ .
جمهرة أشعار العرب ، للقرشى . بولاق ١٣٠٨ .
جمهرة الأنساب ، لابن حزم . تحقيق بروفنسال . طبع دار المعارف ١٣٦٨
الحيوان ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون . الحلبى ١٣٦٤ .
دائرة المعارف الإسلامية . النسخة العربية من سنة ١٣٥٢ .
ديوان حسان . الرحمانية ١٣٤٧ .
« العجاج . ليبسك ١٩٠٢ م .
« أبى محجن الثقفى . الأزهار بالقاهرة .
الروض الأنف ، للسهيلى . الجمالية ١٣٢٢ .
الرياض النضرة ، للمحب الطبرى . الحسينية ١٣٢٧ .
زهر الآداب ، للحصرى . الرحمانية ١٩٢٥ .
سيرة ابن هشام . جوتنجن ١٨٥٩ .
شرح الحماسة للمرزوقى . تحقيق عبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٧٣ .

شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد . الحلبي ١٣٢٩ .
صفة الصفوة ، لابن الجوزي . حيدر أباد ١٣٥٦ .
الطبقات الكبير ، لابن سعد . ليدن ١٣٢٣ .
العقد الفريد ، لابن عبد ربه . لجنة التأليف ١٣٧٠ .
العمدة ، لابن رشيق . هندية ١٣٤٤ .
عيون الأثر ، لابن سيد الناس . القدسي ١٣٥٦ .
فتح الباري ، لابن حجر . بولاق ١٣٠١ .
فصل الخطاب ، للطبرسي . طبع إيران .
الفهرست ، لابن النديم . الرحمانية .
فوات الوفيات ، لابن شاكر . بولاق ١٣٨٢ .
الكامل ، لابن الأثير . محمد منير ١٣٤٨ .
الكامل ، المبرد . ليبسك ١٨٦٤ م .
لسان الميزان ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٣٠ .
مروج الذهب ، للمسعودي . السعادة ١٣٦٧ .
المعارف ، لابن قتيبة . الإسلامية ١٣٥٣ .
معجم البلدان ، لياقوت . السعادة ١٣٢٣ .
المعجم الفارسي الإنجليزي ، لاستينجاس لندن ١٩٣٠م .
المعمرين ، للسجستاني . السعادة ١٣٢٣ .
مغازي الواقدي . السعادة ١٣٦٧ .
مقاتل الطالبيين ، لأبي الفرج الأصبهاني . تحقيق السيد صقر . الحلبي ١٣٦٨ .
الملل والنحل للشهرستاني . الأدبية ١٣١٧ .
الميسر والأزلام ، لعبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٧٢ .
نسب قريش ، للمصعب الزبيري . دار المعارف ١٣٧٢ .
وفيات الأعيان ، لابن خلكان . الميمنية ١٣١٠ .
وقعة صفين ، لنصر بن مزاحم ، تحقيق عبد السلام هارون . الحلبي ١٣٦٥ .